أثر البربر في الأندلس

أ.م.د. ماهر صبري كاظم(*)

المقدمة

إنَّ للبربر أهمية كبيرة في تاريخ الأندلس، حيث اشترك أهل البربر (الأمازيغ) في فتح الأندلس منذ عام (٩٢هـ/ ٧١١م) وكان له أثرٌ كبير في الأحداث التاريخية في داخل الأندلس، منها تأسيس الدول ومساعدة الزعماء السياسية فيها بشكلٍ غير مباشر وذلك لتسلُّط الدولة الأموية على الأندلس، إلَّا أننا لا ننكر قوة البربر في الأندلس باعتبارهِ مكوِّن أساسي في المُجتمع الأندلسي، ومع تصاعد الأحداث السياسية والعسكرية في الأندلس وتعاظم قوة الممالك الأسبانية وانحسار المسلمين فيها وانقسام الدولة الأموية إلى عدَّة دويلات ظهرت ما تُعرف بالفتنة البربرية أو ما تُعرف بالفتنة الكبرى، وكان لها آثار سلبية على تاريخ الأندلس، وفي أواخر تاريخ الأندلس اضطرت مملكة أشبيلية بالاستعانة بأهل البربر من جديد بطريقةٍ رسمية من خلال الاستعانة بالمُرابطين في المغرب الذين أخَّروا سقوط الأندلس لقرونٍ، ومن ثمَّ لحق بهم الموحدون لمدَّةٍ من الزمن، إلَّا أنَّ خسارتهم في معركة العقاب عام (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) أدى إلى توقف مساعدة البربر لأهل الأندلس وبالتالي سقوط الأندلس في عام (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م).

سنحاول في هذا البحث أنْ نُسلِّط الضوء على الأحداث الرئيسة للبربر على الأندلس، منها:

- أثر البربر في فتح الأندلس عام (٩٢هـ/ ٧١١م).
- طبقة البربر في المجتمع الأندلسي.
- الفتنة البربرية في الأندلس (٣٩٩-٤٢٢هـ/ ١٠٠٩-١٠٣١م).
- دولة المرابطين في الأندلس (٤٧٩-٥٤١هـ/ ١٠٨٦-١١٤٦م).
- دولة الموحِّدين في الأندلس (٥٤١-٦٢٠هـ/ ١١٤٦-١٢٢٤م).

(*) الجامعة المستنصرية / كلية الآداب.

أثر البربر في فتح الأندلس عام (٩٢هـ/٧١١م)

إنَّ أول دفعة عسكرية بعد سرية الاستطلاع قادها من أهل البربر هو طارق بن زياد في عام (٩٢هـ/ ٧١١م) منطلقاً من مدينة سبته بمراكب تجارية، وعبور المضيق الذي سُمِّي فيما بعد بـ(مضيق جبل طارق)، فكانت الدفعة الأولى سبعة آلاف جندي، وبعدها أُرسل إليه بدفعةٍ جديدة من خمسةِ آلاف جندي، فأصبحوا اثني عشر ألف جندي، أغلبهم من البربر، فأصبحت منطقة جبل طارق قاعدةً عسكرية ثابتة التي أكملت عملية الفتح الإسلامي[١].

نجح القائد طارق بن زياد مع جيشهِ بالوصول إلى وادي (برباط) في مدينة (قادش)، وبذلك اختار مكاناً إستراتيجياً مميزاً فوضع الجيش بين الجبل على جهة اليمين والبحيرة على جهة اليسار، متمركزاً على هضبةٍ مرتفعة قليلاً عن السطح، انتصر جيش المسلمين في هذهِ المعركة التي استمرت ثمانية أيام فاتحاً جميع مناطق الجنوب إمَّا سلماً أو عنوةً[٢].

طبقة البربر في المُجتمع الأندلسي

بعد الفتح الإسلامي للأندلس انطلقت هجرة كثيفة من بلاد المغرب نحو الضفَّة الأخرى من الأندلس وهم من أهل البربر، واستمرت هذهِ الظاهرة طيلة الوجود الإسلامي في الأندلس خاصةً في عهد الاستقرار (عصر الولاة)، وذلك لرغبة أهل البربر في الجهاد ونشر الإسلام، فضلاً عن غِنى الأندلس وكثيرة ثرواتها، ممَّا أدى إلى أنْ يفكروا أهل البربر بتحسين أوضاعها المادية خارج موطنهم الأصلي، ولا ننسى الموقع الجغرافي والقُرب المكاني بين بلاد الأندلس وبلاد المغرب. غير أنَّ تلك الهجرات لم تكن بانسيابيةٍ واحدة، بل توقفت نتيجة موقف الدولة الأموية من أهل البربر وذلك بتفضيل الجنس العربي على البربري، ممَّا أدى إلى ثورة البربر على الدولة الأموية نتيجة المُضايقات وتعرضهم إلى مطاردةٍ عنيفة، ممَّا أدى إلى انتشار العصيان داخل دول المغرب للتعبير عن رفضهم لسياسة الدولة تجاههم، إلَّا أنَّ الأمور قد تغيرت في عهد الإمارة، ممَّا أدى إلى استئناف الهجرة البربرية إلى الأندلس خاصةً في (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) نتيجةً للصِّراع السياسي بين الأمويين والفاطميين في بلاد المغرب، فضلاً عن النزاعات داخل القبائل البربرية، كذلك ترحاب حكَّام الأندلس بأهل البربر مع وجود عوامل جذب اقتصادية وعلمية[٣].

الفتنة البربرية في الأندلس (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م)

في أواخر عصر الخلافة وتحديداً بعد نهاية عهد الحجابة وتولِّي الخليفة المهدي الأموي الحكم دخلت الأندلس مرحلة الضعف والفوضى لم تشهدها في تاريخها في العصور السابقة، حيث قام الخليفة الجديد باستفزاز البربر وإعلان العَداء لهم، وتحريض الرعيَّة والعامَّة من الناس عليهم بإظهار الكراهية والانتقام منهم على الرغم من مبايعتهم له بالخلافة، ثمَّ ازدادت الفتنة باعتداء بعض أهالي قرطبة من العوام بالعدوان على البربر، فنهبوا ديارهم وطردوهم من المدينة بتأييدٍ من الخليفة الأموي بمُطاردتهم والتنكيل بهم[٤].

ممَّا اضطر أهل البربر مع أميرٍ أموي معارض يُعرف بالمستعين بالله (سليمان بن الحكم) لأنْ يستقروا في مدينة طليطلة، وخاضوا حرباً أهلية واقتتالٍ داخلي على الحكم كانت نتيجتها انتصار البربر بقيادة المستعين بالله، غير أنَّ الأندلس دخلت في دوَّامة الصِّراع على الحكم بين اغتيالٍ وخلعٍ وقتلٍ وغدرٍ وعزل[٥].

إنَّ كلَّ ما جرى من تلك الأحداث نتيجةً للمكانة التي حصل عليها البربر في عهد الحجابة، ممَّا جعل أهل قرطبة ينظرون إلى البربر نظرة حقدٍ وكراهية[٦].

دولة المُرابطين في الأندلس (٤٧٩-٥٤١هـ/١٠٨٦-١١٤٦م)

تُعرف الحركة المُرابطية بحركة أو دعوة إسلامية إصلاحية جهادية تجديدية روحية، والتي أقامت دولةً شَمِلت مناطق كثيرة في بلاد المغرب الكبير، يعود تأسيس الدعوة إلى قبيلة لمتونة (إحدى بطون صنهاجة من البرانس والبتر) اللتين يتكون منهما البربر، لذا تُسمَّى الدولة المُرابطية بالدولة اللمتونية أو بـ(الملثمين) لاتخاذ لمتونة اللِّثام، ويُعتبر (عبد الله بن ياسين الجزولي) المصدر الفقهي للمُرابطين، وتؤكِّد المصادر على أنَّ تسميتهم بالمُرابطين يرجع كونهم لزموا رابطة الشيخ عبد الله بن ياسين (ت٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)، الذي أخذ يُفقههم فيها ويحثهم على الجهاد وسمَّاهم بالمُرابطين[٧].

بعد سقوط الخلافة الأندلسية وبداية عصر الطوائف وضعف دولة الأندلس، خاصةً بعد سقوط مدينة طليطلة بيد الأسبان، استعان ملك أشبيلية المُعتمد بن عبَّاد (٤٣١-٤٨٨هـ/ ١٠٤٠-١٠٩٥م) بالمُرابطين في المغرب، حيث قال كلمته المشهورة: «رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير»، فكان التخوف من البربر إذا ما دخلوا الأندلس قد يسيطروا عليها عسكرياً، لكن لا يوجد خيار آخر في مواجهة الخطر الأسباني. ففي عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) عَبَرَ أمير المُرابطين يوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) إلى الأندلس وانتصر في معركة الزلَّاقة (سُمِّيت المعركة بها لأنَّها وقعت على هضبةٍ عالية تُعرف بالزلَّاقة، لانزلاق الخيول من عليها بسبب كثرة الدماء التي أُريقت فيها)، فبعد هذهِ المعركة التي أوقفت سقوط المدن الأندلسية واستمرار نفوذ المُرابطين في الأندلس، تكرر دخول القادة العسكريين المُرابطين إلى الأندلس وخاضوا معركةً أخرى هي معركة (أقليش)، انتصر فيها المُرابطون في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٨م)[٨].

دولة الموحدين في الأندلس (٥٤١-٦٢٠هـ/١١٤٦-١٢٢٤م)

بعد أنْ ضَعُفَت دولة المُرابطين في المغرب، ظهرت طائفة دينيَّة إصلاحية تستند على توحيد الله (ﷻ) والعودة إلى جوهر العقيدة الإسلامية، ومؤسِّس دولتهم ابن تومرت (ت٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)، الذي أمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقام بكسر المزامير وآلات اللَّهو والطرب متلفاً الخمر في أيِّ مدينة يجول فيها، ولم يكتفِ بذلك بل أخذ ينقد المُرابطين ويطعن في نسبهم، ودعى إلى قتالهم، وكانوا يؤمنون بأحقيَّتهم بالخلافة، وبعد قيام دولة المُوحِّدين على حساب دولة المُرابطين استنجد أهل الأندلس برسائل شخصية من علماءٍ وفقهاءٍ وقُضاة للدخول إلى الأندلس بسبب خطر النورمانديين على سواحل أفريقيا وخطر الممالك الأسبانية، فضلاً على إنهاء وجود المُرابطين في الأندلس، وقد استطاع المُوحِّدون الانتصار في الأندلس بمعركة الأرك عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) في عهد الخليفة الموحِّدي (يعقوب بن يوسف المنصور)، لكن عندما استلم الحكم ابنه (مُحَمَّد بن يعقوب بن يوسف الناصر) ضعف الموحِّدون في المغرب والأندلس، نتيجة ضعف شخصهِ وترددهِ في اتخاذ القرارات، فقد قام بإقحام عددٍ كبير من أهل المغرب / البربر في معركةِ العقاب عام (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) التي خَسِر فيها، وبالتالي انسحاب الموحِّدين من الأندلس بشكلٍ كامل، بل وسقوط دولة الموحِّدين في المغرب بأكملهِ عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٤م)[٩].

الخاتمة

إنَّ تاريخ البربر فيه الكثير من الأحداث التي غيَّرت مجرى الدول، وكان لهم الكثير من المواقف التي دوَّنها التاريخ عِبرَ أجيال، فعندما نستذكر تاريخ البربر نجد أنَّ لهم شأنٌ كبير في الأندلس، فقد كان لهم قدم السَّبق في المراحل الأول في الفتح الإسلامي بقيادة (طارق بن زياد)، والذين نجحوا وأكملوا المهمة بشكلٍ تام بعدها، واستمرت هجرات البربر خاصةً في عصر الولاة لعدَّة أسبابٍ، منها اقتصادية وسياسية واجتماعية وعلمية وجغرافية، ولم تكن على وتيرةٍ واحدة بسبب هيمنة الدولة الأموية على الشمال الأفريقي والأندلس، فضلاً عن نظرتهم إلى البربر ممَّا أوقفت تلك الهجرات، غير أنَّها عادت وبقوة بعد أنْ أسَّس عبد الرحمن الداخل (١١٣-١٧٢هـ/ ٧٣١-٧٨٨م) دولةً أمويةً جديدة في الأندلس بمُساعدة البربر، ممَّا رفع من شأنهم مرةً أخرى في الأندلس، وأصبح العنصر البربري مفضل على العنصر العربي، واستمر هذا الحال حتَّى نهاية عصر الحجابة عندما استولى على السلطة أمراءٌ أمويون جُدد، مليئةً قلوبهم بالحقد على البربر، فحدثت الفتنة البربرية وهو الصِّراع العربي البربري، وبالتالي دخول الأندلس في صراعٍ أهلي دموي من أجل السيطرة على حكم الأندلس، أدى إلى سقوط الخلافة الأندلسية وحلَّ محلَّهُ عصر الطوائف، ممَّا ضعَّف الأندلس لتستعين بالبربر من جديد بدعوةٍ رسمية إلى الحركة الجديدة التي تُعرف بالمُرابطين من أهل المغرب، والذين أوقفوا سقوط الأندلس لعقود، وتكرر المشهد التاريخي عندما حلَّ الموحِّدون بدلاً عنهم، إلَّا أنَّهم لم ينجحوا في آخر معركةٍ لهم مع الممالك الأسبانية عندما انهزموا في معركة العقاب، وبالتالي أنهت الوجود الموحِّدي في الأندلس وسقوطهم في المغرب، ما أدى إلى ضعف الأندلس نتيجة ضعف البربر في المغرب، وبالتالي خسرت الأندلس حليفها القوي، ممَّا أدى إلى انهيار الأندلس بشكلٍ كامل في عام (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م).

الهوامش

(١) السُّلَّمي الأندلسي، عبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ/ ٨٥٢م)، كتاب **التاريخ**، تحقيق: سالم مصطفى البدري، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م)، ص١٢٤.

(٢) المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: خليل عِمران المنصور، ط٢، (بيروت، دار الكتب العملية، ٢٠٠٥م)، ص١٠-١١.

(٣) للمزيد من المعلومات، يُنظر: ابن القوطية القرطبي، أبو بكر مُحَمَّد بن عمر بن عبد العزيز (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، (بيروت، دار النشر للجامعيين، ١٩٥٨م)، ص٣٧ وما بعدها؛ بوباية، عبد القادر، البربر في الأندلس، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١١م)، ص٤٠-١٣٤.

(٤) المراكشي، **المُعجب**، ص٤٢-٤٥؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحَمَّد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، **تاريخ ابن خلدون**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م)، ج٤، ص١٥٠-١٥١.

(٥) الضبِّي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م)، **بُغية المُلتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، ط٢، (القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٨م)، ص٢٤-٣٦.

(٦) بوباية، **البربر في الأندلس**، ص٣٩١.

(٧) يُنظر: الخزاعي، كريم عاتي ورضا هادي عباس، **محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس**، ط٣، (بغداد، دار الحوراء، ٢٠١٢م)، ص٥٤-٥٥؛ الحجي، عبد الرحمن علي، **التاريخ الأندلسي**، ط٢، (دمشق، دار القلم، ٢٠٠٨م)، ص٤٥١-٤٥٤.

(٨) ابن عذاري، أبو عبد الله أحمد بن مُحَمَّد المراكشي (توفِّي بعد عام ٧١٢هـ/ ١٣١٢م)، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج. س. كولان وليفي بروفنسال، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م)، ج٤، ص٤٢-٤٦.

(٩) المراكشي، **المُعجب**، ص٢٠٠-٢١٠؛ الخزاعي، **محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس**، ص٦٠-٦١؛ الحجي، **التاريخ الأندلسي**، ص٤٩٢-٤٩٣.